صلحاء مغاربة لهم علاقة بالبحر



المملكة المغربية
المندوبية العامة
معرض 98 لشبونة

صلحاء مغاربة لهم علاقة بالبحر

د. حجي

تقديم

إن بلداً كالمغرب يقع في مجمع البحرين، وبين مهد الحضارتين : القديمة على ضفاف البحر المتوسط، والحديثة على سواحل المحيط الأطلنتي، لخليقٌ أن يوجد به متعاملون مع البحر بشتى ضروب التعامل، وتبرز من بينهم عبر التاريخ شخصيات متميزة في هذا التعامل منذ العصور التاريخية الموغلة في القدم يمخرون عبابه في رحلاتهم العلمية والاستكشافية والتواصلية، ويمتطون فيه متن سفنهم التجارية لابتغاء الرزق، وأساطيلهم الحربية للذود عن الحِمَى وخفظ كرامة الوطن والمواطنين.

ولما دخل الاسلام إلى المغرب استقر أول ما استقر على الشواطئ، وظل كذلك خلال القرنين السابع والثامن للميلاد، ولم يبدأ ينتشر في الداخل إلا بعد قيام الدولة الإدريسية وتأسيس مدينة فاس، (808 ـ 809 حيث أصبحت فاس مركز علم وحضارة، على غرار القيروان وقرطبة، يعمّ إشعاعها سهول السايس والغرب وتادلا ودكالة وأنكاد علاوة على سلاسل جبال الريف والأطلس.

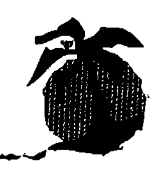
تتحدث بعض كتب السير والمناقب عن وجود أضرحة صالحين مغاربة منذ فجر الإسلام على ساحل المحيط الأطلنتي في منطقة جبل الحديد الممتدة على الضفة الجنوبية لواد تانسيفت (بلاد الشياظمة حاليا) وهم "سبعة رجال" من قبيلة ركراكة على رأسهم المسمى سيدي واسمين، يقال إنهم وفدوا على النبي عليه السلام في مكة وخاطبوه بلسانهم البربري ـ بترجمان أو بدونه على اختلاف الروايات ـ فأسلموا ورجعوا إلى ديارهم يبشرون بالإسلام وينشرونه. ورغم تضارب آراء المؤلفين المغاربة والمشارقة حول هذه الوفادة، فإن من المؤكد تاريخياً أن لقبيلة ركَراكة سبقاً إلى الإسلام ونشره بين قبائل الجنوب.

ومما قد يدعم هذا الرأي أن عقبة بن نافع الفهري لما دخل المغرب فاتحاً عام 682 م ووصل إلى طنجة عرّج نحو الجنوب سالكا ساحل البحر حتى وصل إلى سلا أو أسفي فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال : "اللهم إنك تعلم أنه لو لا هذا البحر لذهبتُ أقاتل في سبيلك حتى لا

يُعبد أحد سواك" ثم تابع سيره إلى مصب واد تنسيفت. حيث ديار ركراكة، وتذكر كتب التاريخ أن عقبة ترك هناك أحد رجاله المسمى شاكر ليعلّم الناس أمور دينهم، وقد شيّد الركراكيون على ضريح شاكر رباطاً كبيراً لم يلبث أن أصبح مجمع القراء والصالحين والمجاهدين إلى جانب رُبُط الركراكيين وزواياهم". وقد اضطلع رجال ركراكة بمحاربة البرغواطيين الزائغين عن الدين منذ تأسست إمارتهم بتامسنا سنة 742 م إلى أن جاء المرابطون الصنهاجيون من الصحراء في منتصف القرن الحادي عشر واجتثوا جذور هذه النحلة الزائغة.

تتوزع أضرحة صالحي ركراكة بين مرتفعات جبل الحديد وهضابه المشرفة على البحر، والضفاف الجنوبية لواد تنسيفت، يقام لهم موسم كبير يدعى "موسم الدّور" في فصل الربيع من كل عام يدوم بضعة أيام، ويستمر الطواف حول أضرحة الركراكيين وزواياهم ستة أسابيع.

وستُعرِّف هذه الكراسة في القسم الأول بمجموعة من الشخصيات المغربية ذُكرت في التاريخ بما لها من صلات بالبحر ؛ وفي القسم الثاني بمجموعة من الصالحين الذين تقوم أضرحتهم على شواطئ المحيط الأطلنتي أو البحر المتوسط، وأكثرهم من المجاهدين الذين قضوا حياتهم في الرباط لحراسة الثغور، أو لمواجهة المغيرين وصدهم عن البلاد. لكن قبل ذلك نتعرض لشخصية بحرية فريدة في المغرب هي نبي الله يونس عليه السلام الذي يوجد ضريحه بسلا عند مصب أبي رقراق.



سيدنا يونس نبيُّ الله دفين مدينة سلا.

هو يونس بن متى الذي يدعوه القرآن "ذا النون" و"صاحب الحوت". يوجد ضريحه ـ حسب الرواية الشفوية المتواترة ـ على ربوة بالقرب من مصب أبي رقراق في المحيط الأطلنتي. يسميه السلاويون سيدنا يونس وسيدي بوسَدْرَة. والسَّدْرَة هي شجرة النبق اختلطت في أذهان العامة بشجرة اليقطين التي أنبتها الله بجوار نبيّه يونس لتظلله بعد أن ألقى به البحر في الشاطئ كما سنرى. وتتفجّر بالقرب من الضريح عين جارية ماؤها عذب فرات تحمل نفس الاسمين.

قدّم القرآن الكريم مجمل سيرة يونس عليه السلام في (الآيات 98 من سورة يونس، و87 -88 من سورة الأنبياء، و139 - 148 من سورة الصافات، و48 - 50 من سورة القلم) وتتخلص في أن يونس تضايق من عصيان قومه فذهب مغاضباً وركب في فُلك مشحون فغرق وابتلعه الحوت، لكن الله نجاه وأخرجه من بطن الحوت، ونبذه بشاطئ البحر في مكان عار لا ستر فيه، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين تظلّله حتى عُوفي، ثم بعثه الله رسولا إلى مائة ألف أو يزيدون من البشر، فآمنوا برسالته فأنعم الله عليهم ومتّعهم إلى حين.

يقول العلماء بأخبار الأمم القديمة إن يونس منسوب إلى أمه متّى، مثل عيسى ابن مريم، وقد عاش يونس وعيسى في عصر متقارب على عهد الامبراطورية الرومانية. يذكرون أن يونس كان في قرية تدعى نِينَوى من قرى الموصل ببلاد الشام الأرض المقدسة، فلبث في قومه سنين يدعوهم إلى عبادة الله فلم يؤمن به إلا القليل، فأنذرهم بعذاب الله، لكن الله كشف عنهم العذاب، فذهب مغاضباً يريد الخروج من الشام، وركب في سفينة مشحونة لكنه غرق في بحر الروم فالتهمه الحوت، ثم ابتلع هذا الحوت حوت أكبر منه ونزل به إلى مكمنه في البحر، فالتقمه حوت آخر أعظم، فجاءت المعجزة وخرج يونس من بطن الحوت ونُبذ بشاطئ مكشوف وهو مريض ضعيف، فأنبت الله بجواره شجرة من يقطين (وهو القرع المسمى حتى اليوم بالقرع السلاوي)، ويسميه المغاربة أيضاً "القرعة الشريفة" رعياً لنسبتها إلى النبي يونس عليه السلام.

إذا كانت نسبة ضريح (سيدي بوسدرة) بشاطئ سلا إلى نبيّ الله يونس لا تخلو من مسحة أسطورية فإن الجغرافيا لا تستعبد ذلك مادام بحر الروم (البحر المتوسط) متصلاً بالمحيط الأطلنتي ؛ والتاريخ لاينفيه كذلك لانتشار نفوذ الرومان آنذاك ودخول كل من بلاد الشام والمغرب في دائرة امبراطوريتهم، بل كانت سلا وشالة تمثلان نهاية الحدود الغربية للإمبراطورية الرومانية.



يضاف إلى ذلك مؤشرات قد تؤيد هذه الأطروحة :

منها أن يونس عليه السلام بعد أن عوفي ـ حسبما تذكره كتب قصص الأنبياء ـ نزل ضيفاً عند رجل فخار صَنَع أواني كثيرة، فأوحى الله إليه أن يأمر الفخار بكسر أوانيه، فاستنكر الفخار ذلك وقال : "شيء عملته بيدي أعيش منه وأتمتع بثمنه أنا وعيالي تأمرني بكسره !". فأوحى الله إلى يونس : "هذا عمِل فخاراً من طين لم تطب نفسه بكسره، وأنت طبت نفساً بالدعاء بهلاك العدد العديد من عبادي !". ومنطقة صنع الفخار بسلا حتى اليوم قريبة جداً من ضريح يونس، وقد استُخرجت قطع فخار كثيرة من موقع روماني عُثر عليه بالصدفة قبل سنتين أثناء بناء المدار الخارجي بولجة سلا للطريق السيار، وهو مقابل تماماً لضريح سيدنا يونس. كما يذكر المؤرخون القدامى، ومنهم المؤرخ الإغريقي دونس Denys، أن شعب الجيتول Getules كان منتشراً في السهول الأطلسية، ووجدهم الرومان فيها عند مجيئهم إلى شمال إفريقيا في القرن الأول للميلاد. أفلا يكون شعب الجيتول هم المائة ألف أو يزيدون الذين بعث الله إليهم يونس عليه السلام بعد نجاته وشفائه ؟

وفي أطلال شالة على الضفة الجنوبية للنهر يوجد قبر "يحيى بن يونس" الذي طالما بحث عنه مؤرخو العدوتين وكتبوا كثيراً دون أن يصلوا إلى تحديد هويته وعصره، واستقر رأي أغلب الباحثين في النهاية على أنه من بقايا الأقدمين قبل الإسلام، أفلا يكون يحيى دفين شالة ولداً لنبي الله يونس دفين سلا ؟ ويبقى الشاهد المادي المستمر : اليقطين أوالقرع السلاوي، أكبر مرجع للصلة بين النبي يونس ومدينة سلا. والأمل منوط بتطور البحث الاركيولوجي والتاريخي والديني للكشف عن حقيقة مدفن يونس، والعلاقة بين أنبياء المشرق وسكان المغرب.

مراجع

- أحمد الثعلبي، قصص الأنبياء، مصر، 1318 هـ.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصر 1906، الجزء 8 ص. 368.
- محمد ابن علي الدكالي السلاوي، الإتحاف الوجيز، سلا، 1986، ص. 71 - 72.



شخصيات مغربية
ذات علاقة بالبحر



طارق بن زياد فاتح الأندلس

اختلف المؤرخون في أصله، فقيل إنه عربي من قبيلة صَدَف، وقيل إنه فارسي من هَمَذان، والأرجح أنه بربري من قبيلة نَفْزة، من السبْي الذي ظفر به القائد موسى بن نصير فأصبح مَوْلىً له. وكان طارق طويل القامة ضخم الهامة أشقر اللون كمعظم سكان جبال الريف، ذكياً تعلم العربية في أقصر مدة، وبرهن عن كفاءته الحربية وإخلاصه لمولاه، فأسند إليه موسى ولاية طنجة، أهم منصب سياسي وعسكري في المنطقة الغربية.

وكان موسى بن نصير، لما استعمله الخليفة الوليد بن عبد الملك على إفريقية والمغرب، سنة 705 م تمكّن من فتح المغرب كله إلاّ سبتة لمناعة موقعها وشدة تحصينها واختلاف سفن القوط إليها من الأندلس، وكان حاكمها مِنْ قِبلهم يُدعى جُليان أويُليان. وقد حَدَثَ ما جعل يُليان وكثيراً من القوط يحقدون على ملكهم لذريق المغتصب للسلطة، فأراد يُليان أن ينتقم منه بواسطة العرب. واتصل بطارق حاكم طنجة وزيّن إليه فتح الأندلس وهوّن أمرها عليه ووعده المعونة والمساعدة. لم يتردد طارق في الاتصال بمولاه موسى المقيم في القيروان وإبلاغه عرض يُليان. رحّب موسى بن نصير بهذا العرض واستشار خليفة دمشق الوليد بن عبد الملك قبل أن ياذن لطارق بالدخول إلى الأندلس.

كان جيش طارق يتألف من سبعة آلاف مقاتل من البربر ليس فيهم من العرب إلاّ ثلاثمائة. وهذا هو الاستثناء الوحيد في تاريخ الفتوحات الإسلامية التي تمت كلها على يد جند العرب وبإمرة قادة من العرب. وقد أبحر جيش طارق من ميناء طنجة يوم الثلاثاء 5 رجب عام 92 / 28 أبريل 711 في السفن الأربع التي وضعها يليان رهن إشارتهم، وفي سفن إسلامية أخرى، ونزلوا عند قدم جبل منيع يدعى كالبي Calpé أصبح منذ ذلك الحين يدعى جبل طارق. وسارع طارق فبني قاعدة لجيشه، وأقام حول الجبل سوراً سُمي سور العرب. ويذكر بعض المؤرخين هنا قصة إحراق طارق للسفن وخطابه في الجند : "البحر وراءكم والعدو أمامكم...".

بعث طارق عبد الملك بن أبي عامر في فرقه سارت محادية للبحر حتى استولت على برج قرطاجنة Torre Cartagena عند مصب نهر يدعى وادي البحر، ثم زحف طارق واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة وأقام لجنده قاعدة في موضع مقابل للجزيرة الخضراء بُنيت عليه المدينة فيما بعد، وترك يليان ومن معه من الرجال يحمون هذه القاعدة. وأخذ يتحرك نحو الشمال، لكن بلغه أن لذريق



زاحف إليه في جيش لا قِبل له به يبلغ أربعين ألفاً أو أكثر. فكتب إلى موسى يستنجده، فأرسل إليه خمسة آلاف من المسلمين بلغ بهم مجموع من معه اثني عشر ألف مقاتل.

أقبلت جيوش لذريق وعسكرت غربي طريف بالقرب من بحيرة خنده Janda، والتقى الجيشان يوم الأحد 19 يوليوز 711 في موضع على وادي برباط أو لكة Lago قرب مدينة شذونة. دامت المعركة عدة أيام وانتهت بهزيمة لذريق بعد أن خذله مِن قومه مَن كانوا يكرهونه، وأعمل المسلمون السيوف في رقابهم ثلاثة أيام وغاب لذريق مع الفارين، واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف، إذ لم يقسم طارق الغنيمة إلاّ على تسعة آلاف.

بعد ذلك تقدم طارق يفتح المعاقل والحصون في اتجاه العاصمة طليطلة، وقد انضم إليه عدد من أهل العُدوة (المغربية). ولما وصل إلى طليطلة افتتحها (سنة 712) بعد أن قضى على فلول القوط المحتشدين حولها، فوجد المدينة خالية فرّ عنها أهلها ومعهم رئيس الكنيسة الإسبانية.

عبر موسى بن نصير إلى الجزيرة الخضراء، بطلب من طارق، ليعنيه في فتح الأندلس ومعه ثمانية عشر ألف جندي جلهم من العرب، وسلك طريق الغرب ففتح مدن شذونه وقرمونه وإشبيلية ولبلبلة وباجة وماردة، وكانت مقاومة القوط الذين تجمعوا حول لذريق قد اشتدت.

استدعى موسى بن نصير طارقاً فلقيه في موضع يدعى تايتر Teitar، وتابع القائدان الفتوح حيث جرت الموقعة الفاصلة الثانية مع جيش لذريق سنة 715 م قريباً من بلدة تمامس ونهر بربالوس Barbalos، دخل موسى وطارق على إثرها إلى طليطلة، وبعث موسى من هناك رسولين إلى الوليد يبشره بالفتح، فجاء جواب الخليفة يأمره بالكف عن التوسع في البلاد والالتحاق به في دمشق. فامتثل موسى وصحب معه طارقاً. لكنهما ألفيا الخليفة الوليد قدمات، وبويع أخوه سليمان بن عبد الملك، وكانت الوشايات والتقولات قد كثرت حول موسى وطارق، فلم يعودا قطّ من المشرق.

مراجع

- ابن عذاري المراكشي، البيان، بيروت، 19، نشر كولان وبروفنسال، ج 1.
- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، مدريد، 1867.
- أحمد المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968، ج 1.
- أحمد الناصري، الاستقصا، الدار البيضاء، 1954، ج 1.
- السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، بيروت، 1981، 2 : 263 -287.

الشريف الإدريسي الجغرافي

محمد بن عبد الله الحسني. وُلد بسبتة سنة 1100 ـ على أصح الروايات. وبها نشأ ودرس، وكانت سبتة آنذاك زاهية بالعلماء المدرسين على صلة قوية بالحواضر العلمية في الأندلس وخاصة إشبيلية. ذكر مترجمو الإدريسي أنه تجول خلال عامين أو ثلاثة في سواحل شبه الجزيرة الإيبرية وفرنسا وانجلترا، وفي مصر والشام وآسيا الصغرى.

وفي سنة 1138 انتقل إلى صقلية ليستقر بها نحو ست عشرة سنة عند حاكمها النورماندي روجار الثاني Roger II الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء وإعجابه بالحضارة الإسلامية ورفقه بالمسلمين الذين بقوا في الجزيرة بعد نهاية دولة الإسلام بها.

صنع الشريف الإدريسي لروجار الثاني كرة أرضية من فضة وخارطة مستديرة تمثلان العالم المعروف آنذاك، كما رسم 70 خريطة على قماش، خريطة لكل جزء من الأجزاء العشرة لكل إقليم من الأقاليم السبعة. وقد لاحظ كراتشكوفسكي أن "الفترة الثالثة في تاريخ الكارتوغرافيا العربية وهي المقترنة باسم الإدريسي تعتبر الأوج الذي بلغه فنُّ رسم الخارطات الجغرافية عند العرب... وجميع خارطات الإدريسي تنفرد بدقة الرسم وباطراح منهج الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسية التي تميزت بها الفترة الثانية للكارتوغرافيا العربية".

وألف الإدريسي لروجار كذلك كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق شرح فيه ما أنجزه من كرة أرضية وخارطات جغرافية شرحاً دقيقاً. وهو أكثر الكتب الجغرافية باللغة العربية رواجاً وصيتاً في أوربّا، وأول كتاب عربي في غير علوم الدين طبع بأوربا سنة 1592 بمطبعة ميديتشي Medici في روما، ثم ترجم إلى اللاتينية ونشر في باريس سنة 1619 وإلى الايطالية مع إغفال اسم المؤلف. وكذلك إلى الألمانية والاسبانية، وطبعت مقتطفات منه بأصلها العربي ومترجمة.

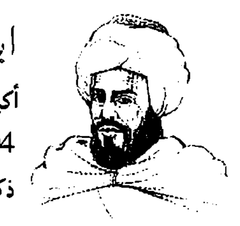
أما خرائط الإدريسي فنشرت على يد الكارتوغرافي ملير K. Miller، وطبع المجمع العلمي العراقي خارطة الإدريسي سنة 1951 بطول ميترين وعرض ميتر، وهو مقياس مناسب للأصل. وأحسن طبعة عربية لكتاب نزهة المشتاق هي التي شارك فيها عدد من الباحثين متعددي التخصصات والجنسيات بإشراف المعهد الايطالي للشرق الأوسط والأقصى في روما، سنوات 1970 ـ 1978 اعتماداً على 14 نسخة.

وللشريف الإدريسي مؤلفات أخرى يبلغ عددها 15 منها كتاب روض الأنس ونزهة النفس، وهو مؤلف جغرافي كتبه لولد روجار وخَلَفه غليوم الأول، ويشتمل كذلك على عدد كثير من الخارطات طبع بعضها في أوربا. وقد أحس الإدريسي كغيره من المسلمين المقيمين في صقلية بتغير الأوضاع فيها عما كانت عليه أيام روجار، فرجع إلى مسقط رأسه سبتة، ولم يطل مقامه بها حيث أدركته الوفاة سنة 1160.

مراجع

- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، ط. 2 بيروت، 1998، ص 303 ـ 326.
- حسين مؤنس، الجغرافيا والجغرافيون العرب بالأندلس، مدريد، 1961 ـ 1962.
- محمد الفاسي، نزهة المشتاق، المغرب الممتاز، سلا، 1940.
- مصطفى عياد، الشريف الادريسي، معلمة المغرب، سلا، 1989 ج 1.





ابن بطوطة

أكبر رحالة في العصر الوسيط. محمد بن عبد لله اللواتي الطنجي. ولد في25 فبراير 1304 بمدينة طنجة، وبها نشأ في أسرة عالمة موسرة، ودرس على والده وعلماء بلده. ذكره معاصره ابن خلدون في المقدمة وعبر عنه بأنه من مشيخه طنجة أي من علمائها.

خرج من طنجة لأداء فريضة الحج سنة 1325 م وعمره اثنتان وعشرون سنة، لكن رحلته الأولى هذه طالت 25 سنة، حجّ خلالها خمس مرات، وزار كثيراً من أقطار إفريقيا وآسيا وأوربا براً وبحراً.

لما وصل ابن بطوطة إلى تونس أثناء ذهابه عيّن قاضياً لركب الحجاج وتزوج بنت أحد أعيان التونسيين لكن لم يلبث أن فارقها وتزوج بنتاً مغربية، وسيتكرر زواج ابن بطوطة خلال الرحلة مراراً.

وفي الأسكندرية لقي رجلا من الصالحين قال لـه : أنت تحب السياحة والجولان في البلاد وطلب منه أن يزور أخاه فلاناً في الهند وآخر في الصين وثالثا في السند. قال ابن بطوطة : "ولم يكن حينئذ خطر ببالي التوغل في البلاد القاصية ... فعجبت من قوله وألقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد".

وبعد أن أدى فريضة الحج خرج إلى العراق وبلاد فاس، وتوقف طويلاً عند أصبهان وشيراز قبل أن يعود إلى العراق، ومر على الكوفة إلى بغداد "مثوى الخلفاء ومقر العلماء" ووصف ما أصابها من خراب، ثم رجع إلى مكة وجاور فيها ثلاث سنين. وقد تجول في البحر الأحمر وزار بلاد اليمن ونزل في ضيافة سلطانها، ودخل مدن صنعاء وعدن وزيلع قبل أن يتوجه إلى موقاديشو على الساحل الشرقي الإفريقي حيث نزل ضيفاً كذلك عند سلطانها.

وبعد أن قام ابن بطوطة برحلة ثانية إلى مصر والشام دخل إلى آسيا الصغرى فبلغ إلى بلاد القفجق Co-sagues والقرم Crimee والبلغار، ووصل إلى بلاد ما وراء النهر فاستقبله ملكها علاء الدين، وزار بخاري ووصف ما ألحقه التتار بها من خراب. ودخل القسطنطينية حاضرة الامبراطورية البيزنطية واستقبله الامبراطور نكفور.

وفي مطلع سنة 1333 وصل ابن بطوطة إلى الهند فدخل إلى دهلي وأقام فيها تسع سنين، حظى عند ملكها محمد شاه الذي سماه قاضياً على المذهب المالكي، ثم بعث به في وفد إلى الصين. وقد توقف ابن بطوطة مدة في الطريق زار أثناءها مناطق أخرى جنوب شرق آسيا مثل ذيبة المهل جزر المالديف، وسيلان، والبنغال. ولما وصل إلى الصين أعجب بسعتها ووفرة خيراتها، وما بها من فنون وصناعات، وأحكام وتنظيمات.

ومن الصين توجه ابن بطوطة إلى سوماطرة في اتجاه الخليج العربي، وحج للمرة الخامسة، قبل أن يعود إلى المغرب عن طريق مصر وتونس، ودخل إلى فاس يوم الجمعة أواخر نوفبر 1349 ومثُل بين يدي السلطان أبي عنان المريني، وهو يومئذ منشغل البال بقضية والده المنكوب أبي الحسن الهائم على وجهه بين صحارى تلمسان وسجلماسة وجبال هنتاتة. فأحسن السلطان إلى ابن بطوطة، وضرب له موعداً ليراه بعد أن تستقر الأحوال.

قام ابن بطوط على إثر ذلك برحلة قصيرة إلى الأندلس (هي رحلته الثانية) ثم لقي أبا عنان في فاس فكلفه بمهمة سياسية لدى ملك مالي منسا سليمان صديق والده السلطان أبي الحسن، فتوجه ابن بطوطة إلى بلاد السودان عبر سجلماسة (رحلته الثالثة) ومكث في نياني عاصمة مالي ثمانية أشهر فلقي ملكها منسا سليمان، ووصف كعادته البلاد ومعالمها وأهلها وعاداتهم.

رجع ابن بطوطة أخيراً إلى فاس في يناير 1354 فألقى بها عصا التسيار بعد أن قضى نحو 30 سنة في التنقل والارتحال، وعاش مدة في بلاط أبي عنان الذي أعجب بما كان يقصه ابن بطوطة من عجائب أسفاره، وأمر كاتبه محمد بن جزي أن يسجل أخبار الرحلة من إملاء صاحبها ابن بطوطة : تحفة النظار.

لقد انتقد بعض الناس على ابن بطوطة ما يذكر من عجائب كل بلد وغرائبها، خاصة البعيدة كالهند والصين. وأقدم من وجه إليه هذا الاتهام معاصره ابن خلدون فقد ذكر في المقدمة أن ابن بطوطة انقلب إلى المغرب بعد رحلة طويلة إلى المشرق "واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند وياتي من أحواله بما يستغربه السامعون ... فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه. ولقيتُ أنا يومئذ وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل بما استفاض في الناس من تكذيبه، فقال الوزير فارس : إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره" وذكر له قصة طويلة تؤيد إمكانية صحة مثل تلك الأخبار العجيبة.

يُفهم من نص ابن خلدون أن ابن بطوطة كانت له شهرة كبيرة وأن رحلته تحفة النظار عرفت انتشاراً واهتماماً في الأوساط العلمية وغيرها. وممن لمزه بالمبالغة في ذكر العجائب والخوارق من المتأخرين، المستشرق ماك گوكين Mac Guekin قال : "وفيه استعداد ظاهر للاستفادة من الوضعية التي كان فيها أي مجيئه من أرض بعيدة لم يصلها أحد من أبناء جنسه فلا يمكنهم تكذيبه بحجة".

وقد أنصف ابنَ بطوطة كثير من المستشرقين المحدثين الذين قارنوا بين ما جاء في رحلته وما ذكره رحالاتهم في عصره أو ما يقرب منه فتأكد لهم صدق أقواله وتحريه في رواياته. حتى سماه دوزي "الرحالة الأمين".

ومما يمتاز به ابن بطوطة عن الرحالة الآخرين مسلمين وغيرهم :

1 ـ اتساع الرقعة الجغرافية التي زارها وتمتد من المغرب غرباً إلى الصين شرقاً، ومن بلاد الأندلس شمالا إلى أواسط إفريقيا جنوباً، وتعرّفه على عدد من البحار : المحيط الأطلنتي، والبحر المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي، وبحر الصين.

2ـ طول المدة التي قضاها في رحلاته والتي تقارب ثلاثين سنة، بينما لم تستغرق رحلة معاصره الإيطالي الشهير ماركو بولو أكثر من ست عشرة سنة حيث توجه من البندقية إلى الصين وأقام في



ضيافة الامبراطور المغولي كوبيلاي خان حفيد جنكيز خان ثم رجع إلى مسقط رأسه عن طريق البحر.

3ـ أهمية اتصالات ابن بطوطة في كل بلد حلّ فيه برجال العلم والقضاء والأولياء وحتى الملوك والأمراء. الأمر الذي مكّنه من الاطلاع على كثير من أحوال البلاد وانتقاء الروايات من أفواه رجال لهم وزنهم في المجتمع.

ويلاحظ أن رحلة ابن بطوطة رغم ما لقيته من إقبال وانتشار في المغرب وغيره من الأقطار الإسلامية لم تُثر من الاهتمام الإيجابي ما أثارته رحلة ماركو بولو في الأوساط المسيحية، ذلك أن البلاد الإسلامية كانت تعيش عصر انكماش وتأخر، بينما استفادت أوروبا الناهضة المتأهبة للتوسع في العالم مما سجله الرحالة الإيطالي لتوطّنه في خططها التوسعية المستقبلة. وقد اهتم المشتشرقون منذ بداية القرن التاسع عشر برحلة ابن بطوطة فكتبوا حولها مقالات مطولة في المجلات، وترجموها أو بعض فصولها إلى لغاتهم، وأهمّها الترجمة الانجليزية للمستشرق جيب Gibb لما احتوت عليه من تعاليق مفيدة. وطبعت رحلة ابن بطوطة منذ أوائل القرن 19 عدة طبعات في أوربا ومصر وتركيا والمغرب كاملة أو مختصرة، وآخرها طبعة أكاديمية المملكة المغربية سنة 1997.

تولى ابن بطوطة القضاء في بلاد تامسنا، وتوفي بها عام 777 / 1375 أو عام 779 / 1377م ولعله نقل إلى مسقط رأسه طنجة ودفن بها لوجود ضريح منسوب إليه حتى اليوم، يحجّ إليه القادمون إلى المغرب من كل أرجاء العالم.

وقد أعلن المغرب سنة 1996 ـ 1997 سنة ابن بطوطة، استهلت بلقاء علمي دولي كبير أقامته وزارة الشؤون الثقافية في طنجة في ربيع 1996حيث أنشئ فيها "متحف ابن بطوطة"، وأزيح الستار في المطار عن اللوحة التي تحمل اسم : "مطار ابن بطوطة".

مراجع

- ابن بطوطة نفسه، تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، 1997.
- ابن خلدون، المقدمة، بيروت، 1956.
- عبد الله گنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب : ابن بطوطة، ط. 3، الرباط، 1996.
- A. Miquel, L'Encyclopédie de l'Islam, 2ème éd.







أبو البركات العبدري

لرحالة الأديب. محمد بن محمد بن علي الحاحي (ت. بعد 1340م) كنيته أبو عبد الله، ويسميه الحاحيون بلسانهم الشلحي "سيدي بُولْبَرْكات". أديب لغوي شاعر ناثر، اختلط شخصه على بعض المستشرقين الإسبان فعدوه أندلسياً من مدينة بَلَنْسية، وتسرب هذا الخطأ إلى دائرة المعارف الإسلامية .E.I وغيرها. والواقع أن في الأندلس عبدريين كثيرين لكن غير هذا الحاحي المغربي.

عاش أبو البركات العبدري بعد أن أتم دراسته بمراكش مدرساً في زاوية اتخذها لنفسه بقبيلة إيمگراد الحاحية، ثم انتقل إلى زاوية أبيه - بعد وفاته - بقرية إداوْعزَّة من قبيلة إدْ أوِيسَارْنْ البعيدة عن الصويرة الحالية إلى الجنوب بنحوه 50كلم على قمة جبل مشرف على البحر غير بعيد عن مدينة تفْتْنَة ومرساها النشيط خلال العصر الوسيط، إذ كان هذا المرسى - كما يقول ليون الافريقي - في غاية الجودة للسفن الصغيرة، يقصده التجار البرتغاليون ليقايضوا سلعهم بالشمع وجلود الماعز.

وفي هذه الزاوية قضى أبو البركات بقية حياته متمتعاً كسائر قومه المصامدة بصيد البحر وصفقاته المربحة بالرغم على حالة الزهد والنسك التي كان عليها، ومن ثم اشتهر بتعلقه بالبحر والمقام بأرض قبيلته الساحلية، لا يبغى بها بديلاً حتي حواضر فاس ومكناس وطنجة وسلا ومراكش التي زارها أو أُسند إليه منصب القضاء في بعضها فلم يطب له المقام ولا قضاء العيد فيها بعيداً عن موطنه وأهله وعشيرته.

اشتهر العبدري برحلته المسماة الرحلة المغربية مثلما اشتهر ابن بطوطة برحلته تحفة النظّار. وقد كانا متعاصرين عاشا معاً في أواسط عهد الدولة المرينية. وإذا كان حجم الكتابين متقارباً فإن محتواهما مختلف جداً، فبمقابل المسافات الشاسعة التي قطعها ابن بطوطة في نحو 30 سنة لا يتعدى خط رحلة العبدري ما بين المغرب والحجاز ولا تزيد الفترة التي استغرقها السفر على عامين، لكن رحلة العبدري تمتاز بدقة الوصف ومتانة الحبك، لذلك اهتم بها المستشرقون منذ نحو قرنين، ومنهم المستشرق الفرنسي شيربونو Cherbonneau الذي كتب عن الرحلة المغربية مقالاً بالجريدة الأسيوية سنة 1854ثم ترجم بعض فصولها وقال : "إني ما رأيت كتاباً عربياً مفيداً ممتعاً لدرجة رحلة العبدري وذلك ليس فقط لصحة تحقيقاته الجغرافية ولكن أيضاً لتفاصيله عن الآثار القديمة ولدراسته للعوائد، ولتقديمه لنا جل علماء القرن السابع المسلمين".



طبعت رحلة العبدري مراراً داخل المغرب وخارجه. وأهمها طبعة الرباط، التي أشرف عليها وحققها الأستاذ محمد الفاسي سنة 1968 ملاحظاً أن فيها صفحات رائعة في وصف المدن وقطع المسافات الصحراوية، ووصف الأحوال الاجتماعية بعبارات غاية في الوضوح والاتساق وجمال اللفظ ودقة الملاحظة.

ولقد تغلب الجانب الروحي في شخصية أبي البركات العبدري، فاشتهر عند قومه بالصلاح والزهد في الدنيا أكثر مما اشتهر في الأوساط العلمية بالتمكن في اللغة والآداب وفن الرحلة، لذلك اتخذ له الحاحيون ضريحين، الأول في زاويته بقرية إيمگراد وشيدوا عليها قبة مليحة وإن لم يدفن هناك، والضريح الثاني المدفون فيه بقرية إداوعزّة على قمة الجبل وعليه قبة حسنة، وبجوار الضريحين مدرستان لتحفيظ القرآن وتعليم مبادئ العربية والدين.

مراجع
محمد العبدري، الرحلة المغربية، الرباط، 1968 ؛ م. الفاسي، مقدمة الرحلة.
أحمد ابن القاضي، جذوة الاقتباس، طبعة الرباط 1974.
إ. إبراهيم التامري، المتعة والراحة في تراجم أعلام حاحة، الدار البيضاء، 1995.





ليون الإفريقي

رحالة مغربي ومؤلف أشهر كتاب عن جغرافية إفريقيا في بداية العصر الحديث : وصف افريقيا، أصله من قبيلة بني زيات على شاطئ البحر المتوسط، واسمه الحسن الوزان. وُلد في غرناطة حوالي سنة 1483م، وانتقلت به أسرته إلى فاس ـ وهو صغير ـ قبل سقوط غرناطة بسنوات قليلة، فدرس في القرويين وظهر نبوغه مبكراً. وقد صحب أباه المكلف من قبل السلطان بجمع الضرائب من جبال الريف والأطلس فزار معه تلك المناطق، كما صحبه في رحلة أخرى خارج المغرب زار أثناءها بلاد مصر والجزيرة العربية والعراق وفارس والشام.

حظي الحسن الوزان ـ ربما بعد وفاة والده ـ عند ملك فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي فجعله من رجال بلاطه، وأسند إليه ـ على حداثة سنه ـ مهام سياسية خطيرة في وقت كان المغرب يعاني من تقسيم السلطة بين فاس ومراكش، واحتلال برتغالي ـ إسباني لعدد من الثغور على البحر المتوسط والمحيط الأطلنتي، فقام الوزان من أجل ذلك بتسع رحلات، علاوة على رحلتيه السابقين، تحدث عنها بتفصيل في كتابه وصف إفريقيا، منها خمس رحلات داخل المغرب في مهمات سياسية، بعضها إلى السواحل الغربية، وبعضها إلى تادلا والأطلس الكبير وسوس لتحسين العلاقات بين الوطاسيين والسعديين، ورحلتان إلى السودان، تلتهما رحلتان إلى المشرق.

توجه الحسن الوزان مرتين إلى بلاد السودان بعد رحلة ابن بطوطة إليها بمائة وستين عاماً، صحب في الأولى عمّه الذي كان سفيراً من قبل سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي إلى سلطان سنغاي الحاج محمد أسكيا الكبير، وذلك سنة 1511م. وإذا كانت المصادر التاريخية لم تفصح عن فحوى هذه السفارة فإن الظروف التي تمت فيها تدل على أن الأمر يتعلق بتأكيد الصلات الودية التقليدية بين البلدين الجارين والدولتين الجديدتين : دولة الوطاسيين الذين حلوا محل المرينيين في فاس، ودولة الأسكيين الذين أقاموا إمبراطوريتهم على أنقاض إمبراطورية مالي.

لم يسجل الحسن الوزان عن هذه الرحلة الأولى في وصف إفريقيا إلا ملاحظات ومشاهدات تتعلق بالطريق الغربي الذي سلكوه عبر الأطلس الكبير وبلاد درعة وصحراء صنهاجة. أما رحلة الوزان



الثانيـة إلى السودان، فـإنه لم يحدد تاريخها، وإنما ذكر في مـواضع من كتـابه أنه كان يوجد بالسـودان خلال سنة 918 هـ / 1512م. وتجدر الإشارة إلى أن الحسن الوزان لا يُعنى بتسجيل مراحل سفره وتواريخها، وإنما ياتي ذلك عرضاً أثناء وصفه لبعض المواقع أو الجهات.

زار الوزان خمس عشرة مملكة (عاصمة) من جملة ستين مملكة سودانيـة، هي - ولاشك - عبارة عن إمارات خاضعة في معظمها لمملكة سنغاي الكبرى، وصف الممالك التي زارها عن مشاهدة وبشيء من التوسع، وتحدث عن الممالك الأخرى بحسب ما رواه عن أهلها أو غيرهم ممن يترددون عليها.
وتحدث الوزان باقتضاب كبير عن مملكة مالي وعاصمتها التي أقام بها قبله ابن بطوطة وأطنب في وصفها، فقد اختفت منها كل مظاهر العظمة والفخامة، وأصبحت مالي منكمشة متداعية في عداد الممالك التابعة لامبراطورية سنغاي، وصار ملكها لذلك العهد مثقلاً بالضرائب إلى حد أنه لا يستطيع إطعام أسرته.

وقد أفاض الحسن الوزان القول في تنبكتو الحاضرة العلمية في السودان الغربي ووصف دورها والمسجد المبني بالحجر في وسطها على يد المعلم الأندلسي إبراهيم الساحلي، وقصر الحجر الكبير لسكنى الملك من بناء نفس المعلم. واهتم بالحياة الاجتماعية والنشاط التجاري في تنبكتو سواء المواد المصنوعة محلياً أو المستوردة من أوربا على يد التجار المغاربة. وتطرق إلى سعة عيش السكان وغنى ملكهم المفرط، كما أولى عناية خاصة للحياة العلمية المتمثلة في وجود عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة والأدباء، يدفع إليهم الملك مرتبات حسنة ويعظمهم كثيراً. ووفرة المخطوطات العربية التي تأتي بكثرة من المغرب وتدرّ أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع.

وعن طبيعة سكان تنبكتو يقول الوزان : "فُطر أهل تنبكتو على المرح، وتعودوا على التجول في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً والواحدة صباحاً وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون".

كما فصّل الحسن الوزان القول في كاوو عاصمة سنغاي. والحركة التجارية النشيطة فيها بسبب ما يحمله السودانيون إليها من كميات وافرة من الذهب يشترون بها مواد مصنعة مستوردة من المغرب وأوربا مشيراً إلى زيادة الطلب على العرض ووفرة الرقيق الذي يباع في ساحتها أيام السوق بأبخس الأثمان، وغلاء البضائع المستوردة إلى عشرة أضعاف قيمتها الحقيقية وأكثر مثل الخيل والأقمشة العادية والرفيعة والسيوف والمهاميز والأعنة، وجميع أدوات الخياطة والعطارة باهظة



الأثمنة. وأشار إلى فخامة قصر الملك ووفرة حرسه وخدمه وحاشيته، وهيئة حكومته من كتاب ومستشارين وقواد وأمناء.

وفي أواخر عام 1516 قام الحسن الوزان برحلته الثامنة إذ خرج من فاس مع ركب الحاج المغربي لأداء فريضة الحج وبعد ذلك توجه إلى الآستانة للقاء السلطان سليم الأول سفيراً لديه من قبل سلطان فاس الوطاسي، لكن سليماً كان قد خرج في حركته العسكرية الكبرى للاستلاء على مصر والشام، فلحق به الوزان هناك وحضر معه المعارك العنيفة التي انتهت يوم 13 أبريل 1517 باندحار قوات المماليك في مصر.

وكانت رحلة الوزان الأخيرة إلى ليبيا وتونس في طريق الرجوع إلى المغرب. وقد مكث فيهما سنتين. وفي عام 1520 أبحر من تونس ليعود إلى وطنه لكن سوء لحظ أوقعه في أيدي القراصنة الإيطاليين بالقرب من جزيرة جربة وأخذوه إلي نابولي ثم قدموه لِما رأوا فيه من أثر العلم والنباهة إلى البابا ليون العاشر Léon X. Jean de Medicis وهو من باباوات عصر النهضة الذين عملوا على إحياء العلوم والآداب والفنون، ولم تكن البيئة المسيحية واللغة اللاتينية غريبة عن الوزان لنشأته الأولى في غرناطة، فسرعان ما تأقلم معها وتمتنت الصلات بينه وبين البابا، وتظاهر بالتمسح وحمل اسم مالكه وحاميه البابا فصار يدعى Jean Léon L'Africain يوحنا الأسد الافريقي.

لم يلبث البابا أن مات في السنة الموالية (1521) فانتقل ليون ليعيش في كنف الكردينال جيل دي فيطيرب Gilles de Viterbe كان الكردينال يتعلم عليه اللغة العربية ويأمل أن ينشرها بواسطته في إيطاليا ليتمكن الأوربيون - وهم في عصر النهضة - من أن يطلعوا مباشرة على كتب العرب في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء وغيرها...

ألف الحسن الوزان في إيطاليا عدداً من الكتب في موضوعات متنوعة تدل على سعة أفقه الثقافي، منها: وصف إفريقيا، كتبه باللغة اللاتينية أو الايطالية، ويقال إنه ألفه بالعربية ثم ترجمه، لكن الأصل العربي لم يعثر عليه لحد الآن. وبذلك عُرف وصف إفريقيا عند الأوربيين في نصه اللاتيني وترجماته العديدة إلى لغاتهم المنشورة خلال القرون الخمسة الأخيرة، وعرفوا مؤلفه باسمه المسيحي جان ليون الإفريقي، ولم يتعرف العرب على هذا الكتاب ومؤلفه الحسن الوزان إلا في الثلاثينات من القرن العشرين، ولم يقرؤا ترجمته العربية إلاّ منذ عقدين من السنين.



• معجم عربي ـ عبري ـ لاتيني ألفه في مدينة بولونيا لطبيب يهودي، يوجد مخطوطاً بمكتبة الإسكوريال.

• كتاب في التراجم باللاتينية، عرّف فيه بثلاثين شخصية بارزة من فلاسفة العرب وأطبائهم. نشر في زوريخ سنة 1664.

• كتاب في الجغرافيا العامة باللغة العربية ضاع ولم يبق منه إلا القسم الثالث الذي ترجمه الوزان نفسه إلى اللغة الايطالية.

وهناك كتب للوزان وردت أسماؤها في كتبه السابقة، لكنها تعدّ اليوم ضائعة، منها : مختصر تاريخ الإسلام، وأشعار الأضرحة، وكتاب في الفقه المالكي، ومؤلف في الأعياد الإسلامية، وآخر في قواعد اللغة العربية والشعر.

يظهر أن الحسن الوزان ملّ المقام في البيئة المسيحية فاختفى من روما في ظروف غامضة حوالي سنة 1550ليلتحق ببلاد الإسلام ويرجع إلى ديانته الأصلية حسبما أكده البنلاء الإيطاليون المعاصرون له. وتتعددُ الروايات حول مصير الحسن الوزان، يقال إنه وصل إلى تونس، ويقال إنه رجع إلى أهله في فاس، لكنه لو وصل إليهما لعُرف وذُكر، ولعل الرواية الصحيحة أنه ابتلعه البحر فيما بين سواحل صقلية وتونس.

مراجع
- ليون الإفريقي نفسه، وصف افريقيا، بيروت، 1980.
- محمد المهدي الحجوي، حياة الوزان وآثاره، الرباط، 1935.





ابن عائشة عبد الله

أمير الأسطول السلاوي (Amiral)من أسرة أندلسية بحرية هاجرت إلى المغرب بعد سقوط غرناطة (1492) واستقرت بمدينة سلا. وفيها وُلد عبد الله ابن عائشة في النصف الأول من القرن السابع عشر. ولا نعرف شيئا عن مراحل دراسته، وإنما تدل تقاريره وخطبته أمام لويس الرابع عشر على أنه كان حاصلاً على ثقافة عربية لا بأس بها، كما كان يتكلم الإسبانية كسائر الموريسكين، ويعرف الانجليزية بحكم اتصالاته وعمله في القرصنة مدة طويلة.

نشأ عبد الله ابن عائشة في وقت كانت فيه القرصنة نشيطة بمدن أبي رقراق، فأخذ يعمل في البحر في وقت غير محدد أثناء المرحلة الأخيرة من عهد القرصنة الحرة التي لم يكن للدولة عليها إشراف (1664 ـ 1671) لكنه كان في هذه الفترة مغموراً كمطلق البحارة، ولم يعد اسمه يتميز بين رجال البحر إلاّ في المرحلة الجديدة التي دشنها السلطان المولى الرشيد بعد أن قضى شهر رمضان عام 1081 / يناير ـ يبراير 1671في مدينة سلا حيث اهتم بقضية الأسرى المسيحيين، ونظّم شؤون القرصنة أو الجهاد البحري، فاستبدل بالرياس والبحارة القدامى الذين كانوا يعملون لحسابهم تحت إشراف الديوان الثلاثي المنتخب رياساً وبحارة جدداً يأتمرون بأمر الدولة ويقدمون خمس الغنائم لبيت المال.

وفي سنة 1684كان عبد الله ابن عائشة يحمل لقب قائد أساطيل سلا Général des Vaisseaux de Saléيجول في المحيط الأطلنتي معترضاً سفن الدول التي لا عهد لها مع المغرب، وقد طاردته مرة سفن انجليزية لم ينجح منها إلا بصعوبة. لكن قوة أسطول ابن عائشة تنامت مع الزمان وأخذ يقوم بغارات متفوقة على سفن خصومه. وتكاثرت هذه الغارات ابتداء من سنة 1687، حيث كان يخرج على ظهر سفينة ضخمة مسلحة بـ 22 مدفعاً، فاستولى في 12 مارس على سفينة فرنسية محملة بالقمح إلى مرسيليا واقتادها إلى الجزائر ؛ وفي 20 مارس استولى على سفينتين فرنسيتين أخريين محملتين بحجر الشب والأرز والبندق، كما غنم لعدد من الدول الأوربية سفناً كثيرة جعلت سمعة ابن عائشة تنتشر في أوربا، وأهمّ نشاطُه السلطات الفرنسية بصفة خاصة.



توالت انتصارات ابن عائشة بالمحيط الأطلنتي في السنوات التالية، وتأكدت خبرته كبحار ممتاز ونشاطه كقائد مقدام. وكانت سنة 1691 أخصب حياته المهنية، حيث استولى على ست سفن فيما بين مارس وماي. وفي يوليوز غنم بالقرب من ساحل لشبونة كارافيل برتغالية محملة بالقمح وأسر 23 من البحارة الذين كانوا على ظهرها قدمهم كأسرى إلى السلطان المولى إسماعيل. وفي شتنبر من نفس السنة استولى مع مساعده الرايس فنيش بالقرب من الجزر الخالدات على أربع سفن : فرنسية وإيطالية وانجليزيتان، الأمر الذي أدخل على الملك غاية الفرح والسرور. وبعد أيام قلائل استوليا على سفينتين فرنسيتين متوجهتين إلى أميركا.

وقد التحق بعبد الله ابن عائشة للعمل معه في البحر كل من أخيه عبد الرحمان ابن عائشة وابنه محمد ابن عائشة. فكانوا يجوبون بسفنهم المسلحة أحسن تسلح مختلف أرجاء المحيط الأطلنتي والبحر المتوسط ويحصلون على غنائم باهظة من البضائع والأسرى والسفن.

كانت سنة 1698 آخر سنوات القرصنة بالنسبة لعبد الله ابن عائشة، حيث خرج في فصل الربيع يمتطي متن سفينة في ملكه الخاص مسلحة بعشرين مدفعاً وأربعة وعشرين منجنيقاً، وعلى ظهرها مائتان من أحسن البحارة السلاويين قوة وخبرة. دامت جولته البحرية 38 يوماً حصل خلالها على خمس غنائم كبرى : ثلاث سفن فرنسية وسفينتان انجليزيتان. كان بعضها متوجها إلى الأرض الجديدة بكندا. ومن بين حصيلتها 35 أسيراً فرنسياً جديداً.

دفعت كل هذه الانتصارات السلطان المولى إسماعيل إلى أن يتخذ من عبد الله ابن عائشة سفيراً له لدى ملك فرنسا لويس الرابع، لا سيما وأن المشاكل المطروحة بين المغرب وفرنسا تتعلق أساساً بالبحر والتجارة والأسرى، وابن عائشة خير من يعرفها. وقد اشتملت رسالة المولى إسماعيل التي قدم بها سفيره إلى لويس الرابع عشر، وهي مؤرخة في 29 شتنبر 1698، على تنويه خاص بعبد الله ابن عائشة وذكّرت بأعماله البطولية السابقة والمكانة الممتازة التي يحظى بها عند العاهل المغربي.

استمرت سفارة ابن عائشة في فرنسا نحو ستة أشهر من 11 نونبر 1698 إلى 25 ماي 1699. وقد أرست سفينته في ميناء بريست Brest بشمال غرب فرنسا حيث بقي ينتظر أسابيع قبل أن يصل إذن الملك باستقباله في قصر فرساي. وخصصت له الأجهزة الرسمية احتفالات فاخرة عبر المدن التي مرّ منها وترك بها صدى طيباً، وأحيطت تنقلاته بأبهة كبيرة، وحرص المسؤولون الفرنسيون على أن



يطلع الوفد المغربي على أكثر ما يمكن من مظاهر الحضارة الفرنسية سواء من حيث المعمار أو الفن أو الثقافة.

كان يصحب ابن عائشة ثمانية عشر شخصاً منهم الرايس معنينو من سلا وعلي بن عبد الله حاكم تطوان. كما كان له مترجم فرنسي يدعى Petit de la Croix سجل أعمال ابن عائشة في نص سماه يومية سفير المغرب عبد الله ابن عائشة صدر مسلسلا في الدورية الشهرية Mercure gal-ant من يبراير إلى يونيه 1699، ونشره دوكاستر كاملا في سلسلة مصادر مغربية غير منشورة.

ولما استقبل لويس الرابع عشر في قصر فيرساي عبد الله ابن عائشة ألقى بين يديه خطاباً باللغة العربية ما زال نصه محفوظاً في المكتبة الوطنية بباريز، يدلّ على حنكة السفير ونباهته ورباطة جأشه.

كانت المهمة الرئيسية للسفارة هي متابعة المفاوضات التي بدأت بمدينة سلا مع رئيس الأسطول الفرنسي لإيجاد حلول للمشاكل القائمة من أجل عقد معاهدة سلام بين البلدين. وقد قدّم ابن عائشة مشروع نص معاهدة شامل لقضايا الأسرى والقرصنة والتجارة، في حين قدّم الجانب الفرنسي مشروعاً مضاداً وقع تبادل الآراء حولهما كتابةً بين السفارة المغربية والحكومة الفرنسية دون أن يتم حولهما اتفاق.

وبالمقابل حصل اتفاق جزئي. مع ستة من التجار الفرنسيين، لتأسيس "شركة سلا" يكون مقرها في دار القصري بسلا، ويديرها جان جوردان Jean Jourdan لتصدير القمح وزيت الزيتون إلى اميركا الجنوبية تحت مراقبة ابن عائشة بعد موافقة المولى إسماعيل.

وقد عاش ابن عائشة بعد رجوعه من فرنسا في حظوة لدى السلطان المولى إسماعيل كوزير ومستشار إلى أن توفي في تاريخ غير محدد قد لا يعدو سنة 1720.

مراجع

عبد العزيز بن عبد الله، السفارة والسفراء، الرباط، 1985، ص 27 ـ 28.

عبد العزيز بن عبد الله، سلا أولى حاضرتي أبي رقراق، سلا، 1989، ص 75 ـ 103 ـ 118.

عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، الرباط، 198، ص 9 : 80 ـ 87.

مصطفى بوشعراء، ذيل الاتحاف الوجيز، سلا 1986، ص 145.

S.I.H.M. France, Paris, 1905, S. 2. T. 4 et 5.

R. Coindreau, Les Corsaires de Salé, Paris, 1948, 70 - 76.



أولياء السواحل



قاسم بن إدريس الشريف الحسني

أمير حافد لإدريس الأكبر مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالمغرب لما ولي الخلافة ثالث ملوك الدولة الإدريسية محمد بن إدريس سنة 828 م احتفظ لنفسه بفاس وأعمالها وقسم الأقاليم على إخوته، فكان من نصيب قاسم بن إدريس مُدن سبتة وتطاوين وطنجة والبصرة وسائر بلاد الهبط. وبعد ثورة عيسى بن إدريس حاكم سلا وبلاد زمور، أمر السلطان محمد بن إدريس أخاه قاسماً بالزحف إلى عيسى لإخضاعه، فأبى، واضطُر في النهاية إلى التخلي عن الإمارة والتزهد، وبنى مسجداً خارج طنجة في طريق أصيلا يتعبد فيه.

وقد استرجع ابنه إبراهيم السيطرة على مدينة البصرة وظل يحكمها أربعين سنة، وهو الذي بنى "حجر النسر" في قبيلة سماتة بجبال غمارة حين سلب موسى بن أبي العافية السلطة من يد الأدارسة في فاس وشتت شملهم، فبقيت البصرة وحجر النسر ملجأين لهم يحتمون فيهما تحت إمرأة أبناء القاسم بن إدريس وأحفاده إلى أن كوّنوا الإمارة الإدريسية الأخيرة المعروفة بإمارة أبي العيش، وهو أمير إدريسي شجاع أعاد للمغرب وحدته وبايعه الناس من شواطئ المحيط إلى سجلماسة. وتميزت فترة حكمه بالفضل والحكمة وحسن السياسة.

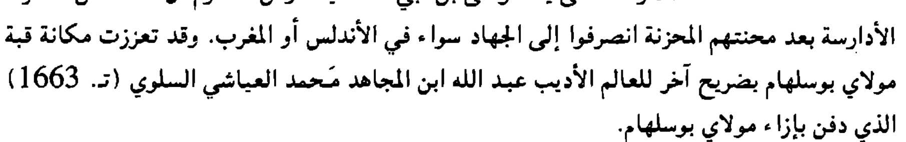
لكن القاسم بن إدريس لم يعد يهتم بالسياسة منذ أن انصرف عنها، وظل يتعبد في مصلاه بساحل البحر إلى أن أدركته الوفاة حوالي سنة 845 م.

وما زال مسجد أبي القاسم بن إدريس وضريحه قائمين بساحل أقشّار بين طنجة وأصيلا يقام حولهما كل عام موسم ديني وتجاري يحضره أبناء المنطقة والشرفاء الأدارسة من مختلف الجهات وتقصده القبائل المجاورة.

مراجع
- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، الرباط، 1970.
- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، مصر، 1948
- ابن الآبار، الحلة السيراء، القاهرة، 1963.
- إسماعيل العربي، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، بيروت، 1983.



مولاي بوسلهام



(مُولَى البحر) في سهل الغرب على بعد 40 كلم من مدينة سوق أربعاء الغرب. أمير إدريسي آخر ـ على أصح الروايات ـ اسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان الإدريسي (ت. نحو 951 م) التجأ إلى هذه المنطقة بعد نهاية دولة الأدارسة على يد موسى بن أبي العافية. ومن المعلوم أن عدداً من الأمراء الأدارسة بعد محنتهم المحزنة انصرفوا إلى الجهاد سواء في الأندلس أو المغرب. وقد تعززت مكانة قبة مولاي بوسلهام بضريح آخر للعالم الأديب عبد الله ابن المجاهد مَحمد العياشي السلوي (ت. 1663) الذي دفن بإزاء مولاي بوسلهام.

تعتبر الأسطورة الشعبية مولاي بوسلهام صاحب البحر، وتذكر أنه ـ من باب الكرامات ـ يُعتبر حارس منطقة الغرب الوطيئة من انسياح مياه المحيط، ولولاه لاختلطت مياه البحر بماء المرجة الزرقاء القريبة منه، ولفار التنّور وعمّ الطوفان سهول الغرب : يقولون إن هذا الشيخ أوقف بسلهامه المدّ البحري فكُنّي لذلك "مولاي بوسلهام".

يقام حول ضريح مولاي بوسلهام موسم سنوي عظيم قبل الحصاد كل سنة تحضره قبائل المغرب، يبتدئ بتجمع تجاري في سوق للأميمونة يومي الجمعة والسبت، ومن ثم يتوجه الزوار يوم الأحد في حفل بهيج وهم يتسابقون على الخيل ويطلقون البارود إلى أن يصلوا مَشْرَع الحَضْر حيث يبتدئ ضرب الخيام ويمتد إلى قبة السيد على شاطئ البحر، وخلال أيام الموسم تقدّم القرابين للضريح وتقام حفلات دينية وتجارية وترفيهية.

لقد أصبح مولاي بوسلهام منذ مطلع القرن العشرين مركزاً اصطيافياً يقصده سكان المدن المجاورة، وبخاصة مكناس والقنيطرة، ويجاوز عدد المنازل المشيدة فيه ألفاً إضافة إلى مرافق عديدة لايواء الزائرين والمصطافين.

مراجع

- معلمة المغرب، سلا، 1992، الجزء 5.
- محمد المهدي الفاسي، ممتع الاسماع، المطبعة الحجرية بفاس، 1313 هـ.

E. Aubin, Le Maroc d'Aujourd'hui, Paris, 1904.



وگَاك بن زَلْوَان

ويكتب أيضاً : زلّو، وزلوى : اللمطي (ت. بعد 1038م)، ضريحه في رباط أگلو على الشاطئ بضاحية تيزنيت. وهو من فقهاء سوس الأولين الذين درسوا بالمشرق والقيروان، ومن أشهر تلامذة الفقيه المالكي الكبير أبي عمران الفاسي.

لما رجع وگاك إلى سوس بنى داراً سماها (دار المرابطين) بقبيلة أگلو، اشتغل فيها بالتربية والتعليم، وقصدها الطلبة من مختلف أرجاء سوس والصحراء. وهي أقدم مدرسة في البادية عرفت في تاريخ المغرب كان من المتخرجين منها عبد الله ابن ياسين الفقيه المجاهد الشهير.

تذكر كتب التاريخ أن قبيلة گدالة ولمتونة من الصنهاجيين الملثمين كانوا يسكنون بأقصى الصحراء مما يلي بلاد السودان، وأسلموا في آخر القرن الأول للهجرة، لكن معرفتهم بقواعد الإسلام ظلت ضعيفة سطحية إلى أن حجّ رئيسهم يحيى الگدالي سنة 1135م، ومرّ في طريق عودته بالقيروان فلقي أبا عمران الفاسي شيخ فقهاء المالكية هناك، وطلب منه أن يُصحبه بعض من يُعلّم قومه أمور دينهم، فكتب أبو عمران إلى تلميذه وگاگ في رباط أگلو ليبعث معه "من يثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله".

وقد وُفق عبد الله بن ياسين، بتعلمات من الشيخ وگاگ، إلى جمع شتات الگداليين واللتمونيين وإثارة حماسهم الديني لنشر مبادئ الإسلام الصحيحة بين قبائل الصحراء وجيرانهم السودانيين قبل أن يصحبهم إلى السواحل الغربية الشمالية للقضاء على نحلة البرغواطيين البدعيين، وإقامة دولة سنية بدلها هي دولة المرابطين.

مراجع

- يوسف ابن زيات التادلي، التشوف، الدار البيضاء، 1984.
- أحمد الناصري، الاستقصا، الدار البيضاء، 1954، الجزء 2.
- محمد المختار السوسي، المعسول، الدار البيضاء، الجزء 11.





سيدي مگدول
بن عبد الجليل الرگراگي

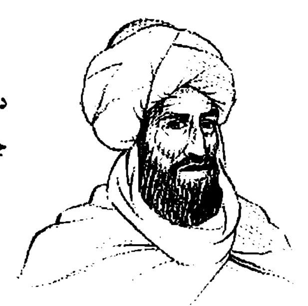
صوفي مجاهد من حفدة سيدي واسمين. كان له رباط يحمل اسمه (رباط مگدول) فحرّفه الأوربيون في خرائطهم التي وضعوها منذ القرن 14 م إلى (موگادور). ولما بُنيت مدينة الصويرة الحالية في موقع الرباط بانحراف يسير سماها الأوربيون (موگادور).

كان رباط مگدول "مرسى مشتى مامون" - كما يقول البكري في المسالك - يقوم بدور تجاري مهم لمنطقة تانسيفت، كما كان رباطاً جهادياً ينطلق منه المومنون لمحاربة البرغواطيين الزائغين عن الدين في تامسنا. ولما قام المرابطون بحملتهم الكبرى ضد برغواطة انضم إليهم مجاهدو هذا الرباط، وأبلى سيدي مگدول في القتال البلاء الحسن، ويظن أنه مات في المعركة الحاسمة التي صرع فيها زعيم المرابطين عبد الله بن ياسين عام 1059 م.

ظل رباط مگدول يقوم بدوره الجهادي عدة قرون، ولما قرر الملك البرتغالي ايمانويل الأول، في نطاق خطته التوسعية في غرب إفريقيا وبلاد الهند، احتلال شواطئ دكالة وسوس، تمكن بالفعل بطريقة أو بأخرى من احتلال مدن أزمور وإيمازيغن (الجديدة) وأسفي وأمگدول وفونتي، ومكث فيها البرتغاليون سنين طويلة قبل أن يزعجهم عنها الشرفاء السعديون والعلويون، باستثناء رباط أمگدول الذي بنوا في الجزيرة المقابلة له حصناً سنة 1506 م لكنهم لم يمكثوا فيه سوى أربع سنوات واضطروا إلى مغادرته سنة 1510 م بسبب المضايقات والهجمات المتكررة لمجاهدي الرباط ومن انضم إليهم من السكان المجاورين العرب والبربر مريدي سيدي مگدول وقومه الرگراگيين.

مراجع

- يوسف ابن الزيات التادلي، التشوف، الدار البيضاء، 1984.
- أحمد الناصري، الاستقصا، الدار البيضاء، 1954، الجزء 2.
- محمد الصديقي، إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة، الدارالبيضاء، د. ت. ص. 19.



مولاي عبد الله أمغار

دفين تِيطْ أو تيطْنْفَطْر على بعد 10كلم من مدينة الجديدة جنوباً. اسمه الكامل أبو عبد الله محمد (الكبير) بن إسحاق بن إسماعيل الصنهاجي. (ت. في حدود 1165م) حرّف العامة كنيته وجعلوها اسماً له ولتِيط (مولاي عبد الله).

يذكر مترجموه أنه درس الفقه على بعض علماء دكالة، وأخذ التصوف عن والده إسحاق ولازم خلوته في تيط، وكانت له صلات ببعض متصوفة عصره، وبخاصة أبا شعيب الردّاد دفين أزمور، متمتعاً بحظوة المرابطين ملوك مراكش، حتى إن ثاني ملوكهم عليّ بن يوسف ابن تاشفين استشاره في تسوير مراكش، كما كان حظياً لدى العزفيين العلماء أمراء سبتة.

تعني كلمة "تيط"عين الماء، وكانت هناك عين حلوة متفجرة في صخرة داخل البحر في ملك آل أمغار، يتوضؤون منها ويشربون هم ومريدوهم، توارثوها خلفاً عن سلف منذ أسس إسماعيل أمغار رباط تيط في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد وبني ولده إسحاق المسجد العتيق الذين دفن فيه. وشيّد حافده محمد الكبير (مولاي عبد الله) الجامع الحديث الذي ما زال قائماً هو وصومعته إلى الآن.

نشأت تيط في البداية كرباط بسيط للمجاهدين ضد البرغواطيين المنحرفين عن الدين والمنتشرين في بلاد تامسنا (الشاوية الحالية)، ثم حولّها الأمغاريون في منتصف القرن الثاني عشر إلى حصن بحري فريد من نوعه بالنسبة للمنشآت الحربية التي شيدها أفراد بدون مساهمة المخزن. وظل حصن تيط قائماً سليماً حتى بداية القرن السادس عشر. ولما نزل البرتغاليون بمدينة أزمور سنة 1513 استسلم أهل تيط وأدوا لهم الإتاوة فترة من الزمن، إلى أن خلّصهم ملك فاس محمد الوطاسي المدعو البرتغالي، فطرد البرتغاليين من تيط وهدم أسوارها حتى لا يتحصن بها البرتغاليون مرة أخرى.

وقد أظهرت الأبحاث الأركيولوجية التي أجريت في العشرينيات من هذا القرن في موقع حصن تيط، معالم كثيرة لهذا الحصن الذي كان يتوفر على جميع المرافق الضرورية للقلاع الحربية، وكشفت عن طبيعته الدفاعية كمركز معد لصد الغارات البحرية عن المنطقة، لأن الأبراج التي مازالت قائمة كلها متجهة نحو البحر.

ومن معالم تيط الباقية كذلك صومعة قديمة متهدمة وسط الحصن شاهدة على موقع المسجد العتيق المندثر، وصومعة أخرى صيّنة بالقرب من البحر تشبه زخرفتها صومعة الكتبية بمراكش والخيرالدة بإشبيلية. وبجوارها ضريح مولاي عبد الله أمغار، والمسجد الحديث الذي جدده السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

يعمر بقايا حصن تيط اليوم جماعة من الفلاحين، ويقام حوله موسم في منتصف شتنبر من كل عام يعدّ أكبر مواسم بلاد دكالة، ولا يقل عدد الذين يشاركون فيه عن 300.000 زائر.

مراجع

- يوسف ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، الدار البيضاء.
- عبد العظيم الزموري، بهجة الناظرين، مخطوط.
- مجهول، مفاخر البربر، الرباط، 1934.
- أحمد ابن قنفذ، أنس الفقير، الرباط، 1965.

H. Basset et H. Terras, Le ribat de Tit, Hespéris, T. VII, 1927.





للاعائشة البحرية

صوفية من بغداد وصفت بالبحرية لأنها دفنت بأزمور عند مصب نهر أم الربيع قرب البحر. يقال إنها كانت على صلة روحية بالشيخ أبي شعيب الردّاد دفين أزمور (ت. 1166م). وقد اشتهر هذا الشيخ عند معاصريه بعدة خصال منها الغيبوبة عن الحس في معظم الأوقات حتى إذا قام يصلي ويقرأ لا يكاد يركع أو يجلس فدُعي لذلك "السارية"، والمكاشفة على الخواطر. ويقال إن الصالحة العراقية عائشة كانت تتمتع بخصال مماثلة، وقد أعجبت بما عرفت من تقوى الشيخ وزهده وورعه، فكانت تناجي أبا شعيب - على بعد الديار - ويناجيها وتوطدت بينهما الصحبة والمحبة في الله.

تقول الرواية الشعبية : كان أبو شعيب يقذف إليها بالكرة قائلاً (هاكي أعائشة في بغداد) فتردها إليه قائلة : (هاك آبوشعيب في قرنْ الوادْ). وتقدمت السن بعائشة وخشيت أن تموت قبل أن ترى الشيخ أبا شعيب فشدت الرحلة إلى المغرب، وتكبّدت مشاق الطريق حتى إذا قربت من أزمور وأصبحت على مرأى منها سقطت على الأرض وفارقت الحياة دون أن تحقق أمنيتها.

ويحظى ضريح للاعائشة البحرية حتى اليوم بتقدير نساء أزمور اللائي يقمن بزيارتها في اليوم السابع من الأعياد الدينية.

مراجع
الرواية الشفوية المحلية.
Villes et tribus du Maroc, Azemour, Paris, 1918.



أبـــو داوود صـالـح الـريـف



هو أبو داوود مزاحم بن علي بن جعفر البَطّيوِي التمسماني (ت. 1182م). درس في المغرب والأندلس وأخذ التصوف عن الشيخ أبي مدين الغوث دفين العُبّاد بتلمسان. ولما رجع إلى موطنه بني رباطاً حمل اسمه (رباط أبي داوود) على شاطئ البحر شرقي مدينة الحسيمة غير بعيد عنها. في مكان مخوف اعتاد قراصنة البحر المتوسط المسيحيون أن يهاجموه من حين لآخر ويسترقوا كل من أمكنهم أن يستولوا عليه من المسلمين رجالا ونساء وصبيانا، وهذه ظاهرة تحدث عنها كثير من المؤرخين، فكان رباط أبي داوود لذلك دار جهاد بالدرجة الأولى.

اشتهر الشيخ أبو داوود وعدد من تلامذته ومريديه الريفيين بالشجاعة والإقدام، فكانوا يتصدون للمهاجمين فيردونهم على أعقابهم خاسرين في غالب الأحيان، وتقدم كتب التراجم والمناقب بعض المعارك البحرية التي جرت قريباً من رباط أبي داوود على صورة كرامات وخوارق عادات. فقد تمكن المهاجمون مرة من أسر عدد من المسلمين حملوهم إلى مراكبهم، وأسروا كذلك الشيخ أبا داوود لكنه عندما دخل إلى المركب تغير الوضع وانقلب الانهزام إلى انتصار، وأُطلق سراح جميع الأسرى ورجع الشيخ إلى رباطه. يقولون إن ذلك حصل ببركة الشيخ إذ جنح المركب ولم يقدر على السير.

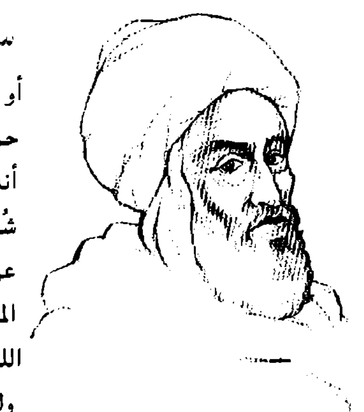
وقد استمر رباط أبي داوود يقوم بمهمته الجهادية بعد وفاة الشيخ يكافح وينتصر تارة وينهزم أخرى. وتذكر كتب التراجم كذلك أن حافده إبراهيم بن عيسى البطوني لما كان متولياً شؤون الرباط سقط مرة في كمين نصبه الأعداء وبقي أسيراً عند النصارى زهاء ثلاث سنوات.

ومازال رباط أبي داوود قائماً حتى اليوم بضاحية الحسيمة معدوداً من المزارات المشهودة ببلاد تمسمان.

مراجع

- عبد الحق البادسي، المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف، الرباط، 1982.
- عباس ابن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، الرباط، 1977، الجزء 7.

سيدي بَلْيُوط



أو أبو اللّيوث صالح شهير بالدار البيضاء. تضاربت الآراء حول اسمه ونسبه وتاريخ وفاته. وقد رجح مؤلّف عبير الزهور أنه عمر بن هارون المديوني، من أهل أنفا (المدينة القديمة التي شُيدت الدار البيضاء على أنقاضها). كان عبداً صالحاً منعزلاً عن الناس - حسب ما جاء في التشوف - وكان أكثر جلوسه في المقابر، فياتيه الأسد فيمسح ظهره بيده ويقول له : اذهب جعل الله رزقك حيث لا تضرّ أحداً من المسلمين، فينصرف الأسد، ولذلك كُنّي أبا الليوث، وحرّفها العامة إلى بليوط.

كان أبو اللّيوث معاصراً لعدد من كبار الصّالحين، أمثال عبد السلام ابن مشيش بجبل العلم، وأبي العباس السبتي بمراكش، وأبي شعيب الردّاد بأزمور، وتوفي سنة 1199 م.

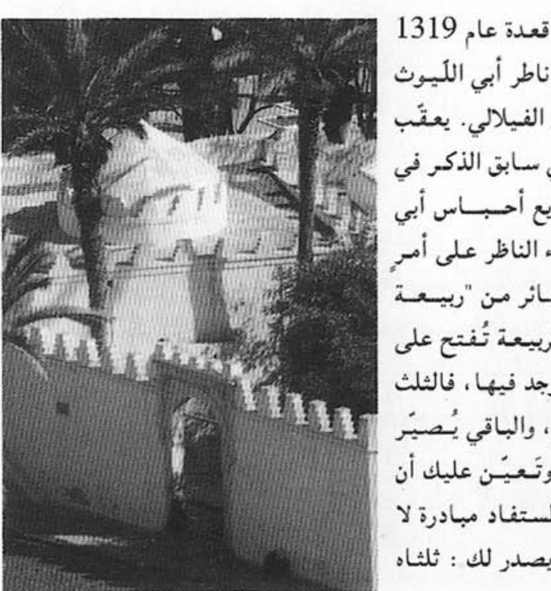
وقد أكد الجغرافي الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق وجود الأسُد في هذه المنطقة عندما تحدث عن رحلته من مراكش إلى تامسنا، ووصف مرسى فضالة بأن به غابة مملوءة بالأسُد. أما الضريح الحالي لسيدي بليوط فيظهر أنه من بناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1784 حين جدّد معالم الدار البيضاء ومرساها وأسوارها وأبراجها السبعة، بما فيها برج الأوداية القريب من ضريح سيدي بليوط.

كان ضريح سيدي بليوط مقصوداً للزيارة من لدن سكان مدينة أنفا قبل خرابها على يد البرتغاليين سنة 1468م، وبقي كذلك مزارة بعد إعادة تشييد المدينة باسم الدار البيضاء، يزوره الناس ويحملون إليه هدايا وصدقات توضع في صندوق يسمى "ربيعة الشيخ" التي كانت لا تفتح إلا على يد أمناء المرسى وقاضي المدينة كما سنرى في الظهير الثالث. كما كانت له أوقاف خاصة يُعيّن لها ناظر من قبل المخزن لضبط مداخيلها ومصارفها، قد يكون هو ناظر أحباس الدار البيضاء كلها، لكن مع ذلك تبقى له صفة خصوصية نظارة أحباس أبي اللّيوث، وكانت حصيلة هذه الفتوحات والأوقاف ذات بال تُصرف في وجوه البر والإحسان وفق تعليمات رسمية، لأن الشيخ سيدي بليوط لم يُعقّب.



أورد ابن زيدان في كتابه إتحاف أعلام الناس، ثلاثة ظهائر عزيزية تتعلق بمصارف فتوحات ضريح سيدي بليوط، الأول مؤرخ في 8بيع الثاني عام 1316 (26 غشت 1898) موجه "إلى ناظر أحباس الولي الصالح سيدي أبي اللّيوث بمحروس الدار البيضاء أن يكون يدفع الأجرة المتعارفة للمعلمين الذين يختانون الصبيان اليتامى وأولاد الضعفاء بالزاوية القادرية هنالك، وأن يكسوهم بما يناسب حالهم كل عام وقت الاختتان من فتوحات الولي المذكور".

والظهير الثاني موجه كذلك إلى ناظر أبي اللّيوث بمحروسة الدار البيضاء مؤرخ في 6 قعدة عام 1318 (25 فبراير 1901) يقول : "بلغ علمنا الشريف أن المرضى من الأفاقيين وأهل البلد الذين لا مأوى لهم يمرضون في الطرقات وينقلون لبيوت خارج المدينة ويبقون هنالك حتى يموتوا جوعاً وعطشاً. وقد اقتضى نظرنا الشريف جمعهم بالبيوت التي قرب ضريح الشيخ المذكور، فنأمرك أن تجمعهم فيها وتخص الرجال ببيوت منها، والنساء منها ببيوت كذلك بعد أن تصلح ما لا بد من إصلاحه وتزيد ما يتوقفون عليه من البيوت وتكون تدفع لكل مريض خبزتين أو ثمنهما في كل يوم، وَمَن تُوفي منهم يقوم بتجهيزه ناظر المواريث، ومن حصلت له العافية يتوجه لحاله وتسقط مؤونته، ومن زاد تزاد له مؤونة أمثاله ...".



أما الظهير الثالث المؤرخ في 15 قعدة عام 1319 (23 فبراير 1902) فهو موجه إلى ناظر أبي اللّيوث وأحباس الدار البيضاء الطالب إدريس الفيلالي. يعقّب على جواب الناظر عن الظهير الثاني سابق الذكر في موضوع الإنفاق على المرضى من ريع أحباس أبي اللّيوث، وإطلاع عامل الدار البيضاء الناظر على أمرٍ مخزني سابق يقضي بأن يكون الصائر من "ربيعة الشيخ". يقول الظهير : "... مع أن الربيعة تُفتح على يد أمناء المرسى والقاصي ويفرّق ما يوجد فيها، فالثلث على الضعفاء القاطنين بجوار الشيخ، والباقي يُصيّر في ختان اليتامى وأبناء الضعفاء. وتَعيّن عليك أن تُصيّر على المرضى مما تحت يدك من المستفاد مبادرة لا متثال ما أمرناك به والعمل على ما يصدر لك : ثلثاه



من وفر الأحباس الكبرى، والثلث الواحد هو الذي يكمّل من فتوحات الولي المذكور، وما عداه من بقية الفتوحات ينفّذ في مصالحه ووظائفه المعهودة فيه ...".

نستنتج من هذه الظهائر :

- أن لضريح سيدي بليوط مداخيل مهمة : فتوحات تجمع في "ربيعة الشيخ"، وريع الأحباس.

- أن ما حول الضريح من بنايات كان يُعدّ مرافق تابعة له يأوي إليها الزوار وغيرهم. وقد اختفت هذه المرافق اليوم وبنيت مكانها متاجر كبري وعمارات شاهقة.

- أن ضريح سيدي بليوط كان يقوم بدور اجتماعي مهم في المدينة سواء بإيواء الضعفاء والمرضى وأبناء السبيل ومن لا مسكن لهم من أهل البلد، و الإنفاق عليهم وعلى الأيتام وأبناء الفقراء من الفتوحات وريع الأوقاف.

مراجع

- ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، الدار البيضاء، 1984.
- عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ط. 2، الدار البيضاء، 1990.
- هاشم المعروفي، عبير الزهور في تاريخ الدار البيضاء، الدار البيضاء، 1987.





أبو محمد صالح بن يَنْصَارْن الدكالي الماكري

دفين رباط أسفي (ت. 1234م) درس علوم اللغة والشريعة على عدد من شيوخ المغرب والمشرق، ولازم بالخصوص دروس الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف الزهري في الأسكندرية نحو عشرين سنة، كما أخذ التصوف عن عدد من صلحاء عصره، واعتمد على الشيخ أبي مدين الغوث دفين العبّاد بتلمسان عن علي ابن حرزهم دفين فاس عن القاضي أبي بكر ابن العربي عن أبي حامد الغزالي.

أسس أبو محمد صالح رباطه خارج أسوار مدينة أسفي بعد أن جددها الموحدون على إثر التخريب الذي ألحقه بها برغواطة. واجتمع عليه في الرباط طلبة العلم والمريدون المتصوفون فكانوا يلبسون المرقعات مثل ما يلبسها الشيخ، منقطعين للدراسة والعبادة والأذكار، ويتفقدهم بالنفقة والإحسان سكان المدينة والناحية.

اشتهر أبو محمد صالح، إلى ذلك، بالدعوة إلى الحجّ والحث عليه، في وقت أخذ المغاربة والأندلسيون يتقاعسون عن هذه الفريضة بعد أن أفتاهم بعض الفقهاء بأن الحج ساقط عنهم لما يلاقونه في الطريق من أخطار ويُبتزّ منهم من أموال.

حجّ أبو محمد صالح وهيّأ مراكز في القاهرة والإسكندرية وغيرهما لاستقبال الحجاج المغاربة، وأسكنها أبناءه وتلامذته، فكان هؤلاء يأخذون بأيدي الواردين والصادرين في (الركب الصالحي) - نسبة إلى الشيخ أبي محمد صالح - ويذلّلون لهم الصعوبات المادية ولدى الحكام والرؤساء.

حظي أبو محمد صالح بتقدير كبير من رجال الدين والعلم والأدب، وأثنى عليه المؤلفون المغاربة والمشارقة ومدحه شعراء ذلك العصر، ومنهم الإمام البوصيري الشهير صاحب البردة والهمزية.

استمر (الركب الصالحي) للحجاج المغاربة منتظماً أكثر من مائة عام على يد ابن الشيخ أبي محمد صالح وخليفته أحمد الذي حج إحدى عشرة مرة، ثم أحفاده الذين تعاقبوا على تسيير رباط أسفي إلى أن تبنّت الدولة المغربية فكرة تنظيم الحج وتكوُّن (ركب الحاج) الرسمي لأول مرة عام 1303أيام السلطان المريني أبي يعقوب يوسف، واستمر إلى أيامنا هذه حيث أصبح يدعى (الوفد الرسمي للحجاج المغاربة).

مراجع

- أحمد الماكَري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، مصر، 1933.
- محمد الكانوني، أسفي وما إليه، ص 2.
- كلية الآداب، الرباط، أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي، الرباط، 1989.



عبد الله اليابوري

صالح الرباط، اسمه محمد وكنيته التي اشتهر بها أبو عبد لله (بإسقاط أب)، أصله من مدينة يابورة Evora بغرب الأندلس (البرتغال حالياً) انتقل إلى المغرب في أواخر القرن الثالث عشر واستقر بمدينة الرباط. وكان متصوفاً لقي كبار الشيوخ وسلك على يدهم طريق القوم، فاتخذ لنفسه بشالة زاوية من بناء أبي الحسن المريني تقع عن يسار الداخل من الباب الكبير، يربي فيها المريدين ويرشدهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم. كان ممن أخذ عنه ولازمه في هذه الزاوية أحمد ابن عاشر الأندلسي السلوي آتى الترجمة، وهو يومئذ ما يزال في ريعان الشباب. فكان الشيخ اليابوري يهتم به ويلقّبه "بالشاب الأسعد الصالح"، ويأمر أهل الفضل بالعناية به، ووجهه إلى تعليم الصبيان قراءة القرآن وحفظه.

يعتبر الشيخ اليابوري طليعة الأندلسيين المهاجرين الذين كوّنوا ما يعرف بحركة التصوف الأندلسية ـ المغربية، وسيقتفي أثره ـ بعد عقود من السنين ـ ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي الذي تزهد وتصوف بعد أن فقد منصبه السامي على إثر ثورة غرناطة وخلع السلطان الغني بالله ابن الأحمر (1359م).

عمّر ابن الخطيب زاوية الشيخ عبد الله اليابوري في شالة ولو أنه كان مقيماً في سلا، فكان يخلو بها لقراءة أوراده، ويزور أضرحة ملوك بني مرين خاصة أبا الحسن، والد ولي نعمته السلطان أبي سالم المريني، فإذا رجع ابن الخطيب إلى سلا اتصل بالشيخ ابن عاشر، فكان هذا الثالوث : اليَابوري ـ ابن عاشر ـ ابن الخطيب منطلق حركة صوفية أندلسية ـ مغربية ستعرف تطوراً كبيراً خلال القرون التالية وخاصة في مدينة فاس.



كان الشيخ اليابوري، إلى جانب صلاحه وتصوفه. فقيهاً متمكناً عارفاً بفروع المذاهب الأربعة، وألّف في ذلك كتاباً لم يُسبق إليه جمع فيه من المسائل الفقهية ما وقع عليه الاتفاق والإجماع في المذاهب الأربعة، ويوجد هذا الكتاب مخطوطاً في الخزانة العلمية ببجّعد.

توفي عبد الله اليابوري بالرباط حوالي سنة 1320م ودفن خارج باب العلو أمام البحر في موقع بهيج كان يُقصد للزيارة والنزهة معاً، وقد كُتب على قبته الصغيرة قصيدة مما جاء فيها.

هذه القبةُ ضاءت بهجــةً   وتجلّت بسرور الناظريــــنْ
كتب السعدُ على أبوابهـا   ادخُلوها بسلامٍ آمـــــينْ

مراجع
محمد الحضرمي، السلسل العذب والمنهل الأحلى، سلا، 1985.
محمد ابن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين، سلا 1986.
محمد بوجندار، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، الرباط، 1987.
محمد الأمين الصحراوي، المجد الطارف والتالد، مخطوط بسلا.





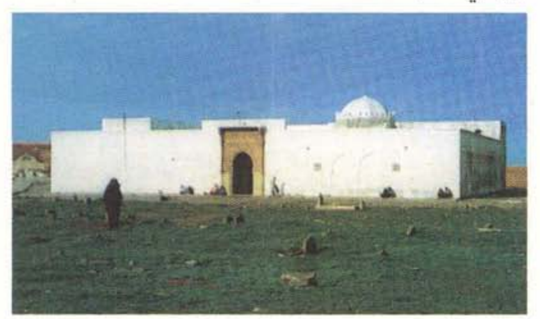
سيدي بنعاشر

واسمه الكامل أحمد بن محمد ابن عاشر (ت. 1364 م)، أصله من شمينة بالأندلس، انتقل إلى سلا وعاش فيها عيشة غاية في الزهد والتقشف. أخذ أولاً عن الشيخ عبد الله اليابوري بالرباط ولازمه سنين عدية في زاويته بشالة، وتخرج على يده فقيها صوفيا محدثا.

فلما مات الشيخ اليابوري رجع ابن عاشر إلى مدينة سلا وسكن بالقرب من الجامع الأعظم، إلا أن معظم مُقامه كان بين المقابر على ساحل البحر بالقرب من المكان الذي دفن فيه. وكانت هذه المقابر آنذاك مكشوفة على البحر لم تسوّر بعد، لأن سور أشبار الحالي إنما بُني مؤخراً في عهد الشرفاء العلويين.

كان الشيخ ابن عاشر يداوم على قراءة الإحياء للغزالي، ويتعيّش من نساخة كتاب العمدة في سيرة النبي عليه السلام والخلفاء الراشدين لمحمد البري التلمساني. وقد طغا جانب الزهد والكرامات على ترجمة ابن عاشر مع أنه على ما يبدو كان عارفاً بالطب يداوي المرضى خاصة المصروعين والمفلوجين والمقعدين، مشتغلاً كذلك بأمور الجهاد وافتكاك الأسرى، كما يوخذ من بعض الإشارات العابرة في ترجمته.

بُني إلى جانب ضريح الشيخ ابن عاشر الذي كان بسيطاً في البداية مارستانٌ وقع تجديده سنة 1831، وبلغ عدد بيوت المرضى فيه ثلاثين، إلى جانب مرافق أخرى. وما يزال هذا المارستان يستقبل هذا الصنف من المرضى من سلا ومن خارجها حيث ينعمون بالراحة والهدوء مع نسيم البحر وصدى تكسر أمواجه، ويشفون في غالب الحالات.



مراجع

- محمد الحضرمي، السلسل العذب والمنهل الأحلى، سلا، 1985.
- لسان الدين ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، فضالة، 1976.
- أحمد ابن عاشر الحافي، تحفة الزائر بمناقب الشيخ ابن عاشر، رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب، بالرباط.
- أحمد الناصري، الاستقصا، الدار البيضاء، 1954، ج. 3.



سيدي بوزيد

هناك ضريحان مشهوران بهذا الاسم في دكالة وعبدة لا يعرف شيء كثير عن صاحبيهما، ويظن أنهما من أهل القرن التاسع الهجري (15م) عصر المحاولات الإيبرية لاحتلال منطقة دكالة. أحدهما :

سيدي بوزيد أسفي، وهو أبو زيد عبد الرحمان الرجراجي، يوجد ضريحه على قمة مشرفة على البحر، حيث كان يرابط ويشارك في الدفاع عن المدينة ضد الاساطيل المهاجمة. ويذكر مترجموه أنه كان في ضريحه تقاييد تبين نسبه وتاريخ أسرته لكنها فقدت، ولعل ذلك حصل عند الاحتلال البرتغالي لأسفي سنة 1481 م.

والثاني : سيدي بوزيد الجديدة، اشتهر أيضاً بكنيته، واسمه عبد الرحمان، ولعله من آل أمغار أهل تيط. يوجد ضريحه على بعد نحو خمسة كيلو ميتراً إلى الجنوب من مدينة الجديدة، حيث أصبح اليوم مصطافاً جميلاً.

يلاحظ تعلّق الصيادين بهذا الضريح وزيارتهم له كلما أرادوا الخروج إلى البحر رجاء السلامة والغُنم، حتى ظن بعض الباحثين المحدثين أن الزاي في (زيد) منقلبه عن الصاد : (صيد) كما هو شائع في لسان البربر. ويربطون ذلك بتاريخ المنطقة القديم، فقد كان من بين الآلهة الأسطوريين للإغريق إله البحر بوصيدون Poseidon، وأخذه عنهم الرومان باسم نبتون Neptune وكانوا يمثلونه حاملا حربة مثلثة الأسنَّة، ولم يكن مجهولاً عند الأفارقة الشماليين. فقد ذكر حانون القرطاجي في الرحلة التي طاف خلالها حول المغرب في القرن السادس قبل الميلاد، قال : "ثم توجهنا إلى ناحية الغرب فوصلنا إلى لسان من أرض ليبيا (المغرب) تكتنفه الغابات ويدعى سولاييس Solaeis وشيّدنا فيه معبداً لبوصيدون. وأكد ذلك سكيلاكس Scylax الإغريقي في الرحلة التي قام بها في القرن الرابع للميلاد.

مراجع

- هيرودوت، نشر وترجمة جزيل، الجزائر، 1916.
- معلمة المغرب، الجزء 5، سلا، 1992.
- أحمد الصبيحي، باكورة الزبدة في تاريخ أسفي وعبدة، الرباط، 1994.
- محمد الشياظمي، حسن الدلالة على ما انقرض من حواضر دكالة، مخطوط.

خـــاتـمـة

هكذا تقـدّم هذه الصفحات عينات من الشخصيات المغربية
التي كان لها اتصال بالبحر عبر العصور ، وتعامل معه لأغراض
شتّـى ، علـمية وثقافية ، أو لمهمات سياسية ودبلوماسيـة ،
كما تُـعرِّف بنماذج من الصالحين والمجاهديـن الذيـن تـنتشر
أضرحتهم عبر السواحل شاهدة ، إلى جانـب الصوامع ،
على تجذر الإسلام فـي هذه البلاد .



فهرس



Conception, compogravure et flashage
Quadrichromie
Imprimerie
OKAD
Dépôt légal
877 / 1998
ISBN
9981-149-03-9